﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَودُ إلى ذِكْرِ أَحوالِ الّذينَ تَخَلّفوا عَنِ القِتالِ

بَعدَ أنْ ذَكَرَ اللّهُ تَعالى بَعضَ سَوْءاتِ المُنافقينَ مِن اعْتذارِهم لِلمؤمِنينَ عَنِ الخُروجِ مَعهُمْ لِلقتالِ ولَمْزِهم في قِسْمَةِ الصَّدقاتِ وفي إعطائِها، عادَ إلى الكَلامِ في ذِكْرِ حالِ الّذينَ تَخَلَّفوا عَنِ القِتالِ في غَزْوةِ تَبوك وظَلّوا في المَدينَةِ[1]، واعْتَذَروا بِأعْذارٍ وعِلَلٍ كاذِبَةٍ، حَتّى أذِنَ لَهم، فَكَشَفَ اللّه لِلرَّسولِ ﷺ عَنْ أحْوالِهِمْ وأعْلَمَهُ بِسوءِ فِعالِهِمْ، فَأنْزَلَ اللّه عَلَيْهِ: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآيَة، وبيَّنَ ما يَجبُ مِن مُعامَلةِ هؤلاءِ بَعدَ الرُّجوعِ إلى المدينةِ، وقد نَزَلَ ذلكَ في أثْناءِ السَّفَرِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِحَ﴾: أَصْلُ الفَرَحِ: يَدُلُّ على خِلافِ الحُزْنِ، والفَرَحُ: السُّرورُ، يُقال: فَرِحَ، يَفْرَحُ، فَرَحًا: إذا سُرَّ، فهو فَرِحٌ وفَرْحانٌ. والفَرْحَةُ والفُرْحَةُ: المَسَرَّةُ، وضِدُّه: الحُزْنُ[3]، والمرادُ بالفَرَحِ في الآيَة: السُّرورُ مع الغرورِ.

2) ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾: أصلُ (خلف): خِلافُ قُدّامٍ[4]، ويُقالُ: خَلَّفوا أثْقالَهُم تَخْليفًا: خَلَّوْهُ وراءَ ظُهورِهِم[5]، والتَّخَلُّفُ: التَّأخُّر[6]،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/473.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فرح).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (خلف).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (خلف).
(6) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).

والخالِفُ: المتأخِّرُ لِنُقصانٍ أوْ قُصورٍ كالمُتَخلِّف[1]. والمُخَلَّفُ: المَتْروكُ، يُقالُ: خَلَّفَ فلانٌ فُلانًا وراءَهُ إذا تَرَكَهُ خَلْفَه[2]، وهذا هو المرادُ بـ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ في الآيَةِ.

3) ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: أصلُ القُعودِ: الجُلوسُ، وهو نقيضُ القيامِ. قَعَدَ يَقْعُدُ قُعودًا ومَقْعَدًا، أَيْ: جَلَسَ[3] بَعدَ قيامٍ، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحِدةُ[4]، والقِعْدَةُ: للحالِ الَّتي يكونُ عَليْها القاعِدُ[5]، والمَقْعَدُ: مكانُ القُعودِ، وجَمْعُه: مَقاعِد[6]، وهي: موضِعُ قُعودِ النّاسِ في الأَسْواقِ وَغَيْرِها[7]. والمَقْعَدُ هُنا مَصْدَرٌ ميميٌّ، أَيْ: بِقُعودِهِمْ. والمقصودُ بـ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ في الآيَةِ: بِجلوسِهم في مَنازِلِهم[8].

4) ﴿خِلَٰفَ﴾: أصلُ (خلف): يدلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ، وقيامِه مَقامَه، والخَلَفُ: ما جاءَ بَعْدُ. تَقولُ: قَعَدْتُ خِلافَ فُلانٍ، أَيْ: بَعْدَهُ[9]. وخِلاف: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ القائِلِ: خالَفَ فُلانٌ فُلانًا فَهوَ يُخالِفُهُ خِلافًا، كَما يُقالُ: قاتَلَهُ فَهوَ يُقاتِلُهُ قِتالًا[10]. والمقصودُ بـ ﴿خِلَٰفَ﴾ في الآيَةِ: بَعْدَ. أَيْ: بَعْدَ رَسولِ اللّهِ ﷺ.

5) ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾: أصلُ (كره) يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ. يُقالُ: كَرِهْتُ الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ كُرْهًا وكَرْهًا. والكُرْهُ الاسْمُ. والكَرْهُ: أَنْ تُكَلَّفَ الشَّيْءَ فَتَعْمَلَهُ كارِهًا[11]، والكَراهَةُ: المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أَيْ: على مَشقَّةٍ[12]، ومِنْهُ سُمِّيَتِ الحَرْبُ: كَريهَةً[13]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكْروهُ: ما يَكْرَهُهُ الإِنْسانُ وَيَشُقُّ عليه[14]، والمقصودُ بالكَراهةِ في الآيَةِ: الكَراهيَةُ ونُفْرَةُ الطَّبْعِ مِنَ الشَّيْءِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قعد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(6) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 11/602.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 11/602.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(13) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كره).
(14) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (كره).

6) ﴿لَا تَنفِرُواْ﴾: أصلُ (نفر): يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[1]، وهو أيضًا: الإسْراعُ إلى الشَّيءِ، والانزِعاجُ عنِ الشَّيْءِ أوْ إليْهِ[2]. يُقال: نَفَرَ، يَنْفِرُ، نُفورًا ونِفارًا: إذا فَرَّ وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنْهُ: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا: إذا أَسرَعوا في الخُروجِ لِقِتالِهِ، والمقصودُ بالنَّفيرِ في الآيَةِ: الخُروجُ السَّريعُ - إلى الجِهادِ - مِنْ مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ[3].

7) ﴿ٱلْحَرِّ﴾: أصلُ (حرر): خِلافُ البَردِ، يُقالُ: هذا يَومٌ ذو حَرٍّ، ويَومٌ حارٌّ. والحَرورُ: الرّيحُ الحارَّةُ تَكونُ بالنَّهارِ واللَّيْلِ[4]. والسَّمومُ: الرّيحُ الحارَّةُ بالنَّهارِ وقَدْ تَكونُ باللَّيْلِ، ومنْهُ الحرَّةُ، وهو العَطَشُ[5]، والمرادُ بالحرّ في الآيَةِ: نَقيضُ البَردِ.

8) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أَصْلُ الفِقْه: الفَتْحُ والشَّقُّ، ومنه سُمِّيَ العِلْمُ: فِقْهًا؛ لأَنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأَمْرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ لِيَكْتَشِفَ ما فيهِ[6]. ويأْتي الفِقْهُ بِمعنى الفَهْمِ[7]، يُقال: فَقِهْتُ الحَديثَ، أيْ: فَهِمْتُهُ. والفِقْهُ أيضًا: الإدْراكُ والعِلْمُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ، فَقاهَةً وفِقْهًا، إذا صار الفقه سجيَّةً له، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أيْ: تَعَلَّمَ[8]، وكُلُّ عِلْمٍ بِشَيْءٍ فهو فِقْهٌ[9]، ثمَّ خُصَّ بِهِ عِلْمُ الدّينِ لِشَرَفِهِ على جَميعِ العُلوم[10]، وقيل الفِقْهُ: إدْراكُ دَقائِقِ الأُمورِ[11]. والمقصودُ بالفِقْهِ في الآيَةِ: فَهْمُ ما يَحتاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تَعالى أنَّ المنافقينَ الَّذين حَمَلهمُ الكسَلُ والنِّفاقُ على الاعْتذارِ الكاذِبِ عَنِ الخُروجِ إلى غَزْوةِ تَبوكَ، قدْ فَرِحوا بِقعودِهم عَنِ الغَزْوِ بَعدَ خروجِهِ ﷺ وكَرِهوا أنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(2) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 327.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حرر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).

يُجاهِدوا بأَموالِهم وأَنفسِهم في سبيلِ اللّهِ، لا إيثارًا للرّاحةِ والسَّلامَةِ فحسْب، بَلِ استجابَةً أَيضًا لِما اسْتقرَّ في قُلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ، الَّذي أَوْرَثهُمْ بُغضَ الجِهادِ الَّذي تَتحقَّقُ به أَشرفُ الغاياتِ، ولَم يَكتفوا بِتَخلُّفِهم عنِ الجِهادِ وفَرَحِهم بِهذا القُبحِ، بَل كانوا يُثبِّطون غَيرَهم عَنِ الخروجِ بِقولِهم: لا تَخرجوا في الحرِّ وتَترُكوا بيوتَكم، فإنَّكم لا تُطيقونَ شِدَّتَهُ، فَأَمرَ اللّهُ رَسولَهُ ﷺ أَنْ يَرُدَّ على جَهلِهم: قلْ - يا محمَّدُ - لِهؤلاءِ المنافقينَ: نارُ جهنَّمَ الّتي يَدخُلُها في الآخرةِ مَن خالَفَ أَمْرَ اللّهِ، وعَصى رسولَ اللّه، أَشَدُّ حرارةً مِن حَرِّ الدُّنيا الَّذي لا تريدونَ النَّفرَ فيهِ، فاتَّقوها بالجِهادِ. ولكنَّهُم لا يَفقهونَ عنِ اللّهِ، فَهُم يَحذَرونَ مِن الحرِّ أَقلَّهُ مَكروهًا وأَخَفَّهُ أَذًى، وهو حرُّ شَمسِ الدُّنيا، ويوافِقونَ أَشدَّهُ مَكروهًا وأَعظَمَه على مَن يَصلاهُ بلاءً، وهو حَرُّ نارِ جَهنَّم[1].

وَصفُ حالِ المنافقينَ على جِهَةِ التَّوبيخِ واللَّومِ لَهُمْ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ فَصلِ الآيَةِ عمّا قَبلَها:

تُعدُّ هذهِ الآيَةُ الكَريمَةُ اسْتِئنافًا ابْتِدائِيًّا؛ إذْ إنّها بيانٌ لحالِ المنافِقينَ عَقيبَ تَخلُّفِهم عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، واسْتِغْفارِهِ لَهُم، فمُناسَبَةُ فَصلِ هذهِ الآيةِ عمّا قَبلَها ووقوعِها في هذا المَوْضِعِ على اعْتبارِ أَنَّ فَرَحَ المنافقينَ بِتَخَلُّفِهِمْ قَدْ قَوِيَ لَمَّا اسْتَغْفَرَ لَهُمُ النَّبيُّ ﷺ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ اسْتَغْفَلوهُ، فَقَضَوْا مَأْرَبَهُمْ، ثُمَّ حَصَّلوا الاِسْتِغْفارَ ظَنًّا مِنْهُمْ بِأَنَّ مُعامَلَةَ اللّهِ إيَّاهُمْ تَجْري عَلَى ظَواهِرِ الأُمورِ[2].

بَيانُ حالِ المنافِقينَ إثْرَ تَخلُّفِهم واسْتِغفارِ الرَّسولِ ﷺ لَهُمْ

سِرُّ الإخبارِ عنِ المنافِقينَ بِأمورٍ غَيبيّة:

أَخبرَ اللّهُ تَعالى النَّبيَّ ﷺ بِأَحْوالِ المنافِقينَ القَلْبيَّةِ؛ لِتَثْبيتِ قَلْبِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/603، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/189، 191، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 346، ومجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1740.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.

ﷺ، لأنَّه ﷺ ما كانَ لَهُ أنْ يَعلَمَ بحالِهِمْ لَولا الوَحْيُ، فَلَولا أنَّ اللّهَ جَلَّى لَهُ أمْرَهم لُطفًا به ﷺ، لَما عَلِم بِسَرائِرِهم أحَدٌ. وفيهِ تَحذيرُ المؤمِنينَ مِنَ الوقوعِ في بَراثِنِ هؤلاءِ المنافقينَ.

تَكَشُّفُ المُغيَّباتِ القَلْبيَّةِ لِقصْدِ دَفعِ لَوازِمِها وتَأْكيدِ أحْكامِها

تَلوينُ الخِطابِ مِنَ الإنْشاءِ إلى الخَبَرِ:

انْتقلَ الحَديثُ من خِطابِ رَسولِ اللّهِ ﷺ إلى الإخْبارِ عَن حالِ المنافقينَ، فَقولُهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أُسلوبٌ في ظاهِرِهِ إنْشاءٌ؛ لأنَّ فيهِ أمرًا ونهيًا، ولكنَّهُ في الحقيقةِ إخبارٌ بأنَّ اسْتِغفارَكَ لَهُم وعدَمَهُ سَواءٌ، فَهؤلاءِ المنافقونَ الّذين تَحرص - يا رَسولَ اللّهِ - على هدايتهم، وتَلحُّ في الاسْتِغفارِ لهُم، لَن يَغفرَ اللّهُ لهُم، وانْظرْ إلى حالِهم بَعدَ تَخلُّفِهم عَنكَ، واسْتِغفارِك لَهُم، إنّهم فَرِحونَ بهذا التَّخَلّفِ والقُعودِ، فالانْتِقالُ من خِطابِ النَّبيِّ إلى الإخبارِ عَنهُم تَسْريَةٌ عَن قَلبِهِ الشَّريفِ؛ حتَّى لا يحزَنَ بَعدَ حُكمِ اللّهِ عَليهِمْ بِعدَمِ المَغْفرَةِ، وبَيانٌ لِفسادِ قلوبِهم، وسوءِ طَويَّتِهم.

قَصدُ التَّسليَةِ بالانْتِقالِ مِن مُخاطَبَةِ النَّبيِّ الرَّحيمِ إلى الإخْبارِ عَن جِنسٍ لَئيمٍ

سِرُّ التّعبيرِ بِلَفظِ (الفَرَح) واسْتِعمالِ صيغَةِ الماضي:

في التَّعبيرِ بـ ﴿فَرِحَ﴾ بِصيغَةِ الماضي دلالَةٌ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الفَرَحِ بالتَّخلُّفِ في قُلوبِهم، الَّذي هو دَلالَةٌ عَلَى نِفاقِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ لَكانَ التَّخَلُّفُ نَكَدًا عَلَيْهِمْ وَنَغْصًا كَما وَقَعَ لِلثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا فَتابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ[1]، كما أن فيها دلالةً على انقضاء فرحهم وعدم دوامه في قلوبهم لأنه فرحٌ بمعصية اللّه تعالى.

دَلالَةُ الفَرَحِ بِصيغَتِهِ الماضيَةِ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الفَرَحِ في قُلوبِ المُنافِقينَ وعدمِ دوامِهِ لأنه فرحٌ بمعصية

دلالَةُ (ال) في: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

(ال) في قولِهِ تَعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ للعَهْد، والمَعْهودونَ هُم قَومٌ مِنَ المُنافقينَ مَعروفونَ بأَعْيانِهِمْ قد تَخلَّفوا عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، في غَزْوةِ تَبوك[2] بادِّعاءِ أعْذارٍ لا وجودَ لَها، فَأذِنَ لَهُم النَّبيُّ ﷺ، ثُمَّ فَرحوا بِهذا التَّخَلُّفِ فيما كَشَفَه عَنهُمُ القُرآنُ الكَريمُ.

القَصدُ إلى كَشفِ حالِ المُنافقينَ بالإحالَةِ على المَعْهود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/698.

ومَع إرادَةِ العَهْدِ في (ال)، فهيَ مَوصولَةٌ بمعنى (الَّذين)، وأوثِرَ التَّعبيرُ بها؛ لِدلالَتِها مَعَ اسْمِ المَفعولِ (مخَلَّفون) عَلى ثُبوتِ جَريمتِهم، وانْكِشافِ حالِهِم، كَما دَلَّتْ عَلى تَحقيرِ المنافقينَ، وإهمالِ شَأنِهم، حتّى لَكأنَّهم شَيْءٌ من سَقَطِ المتاعِ الَّذي يُخلَّفُ ويُترك ويُهْمَل؛ لأنَّه لا قيمَةَ لَهُ، أَوْ لأنَّ ضَرَرَه أَكْبرُ من نَفعِه،[1] فَخرَجَ مِن ذلكَ الثَّلاثَةُ وأَصْحابُ العُذْرِ[2].

إيثارُ لَفظِ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ واستِعماله في صيغَةِ اسمِ المفعولِ:

المَـــــتروكُ لا يَسْتَحقُّ شَـرَفَ الجِهادِ مَعَ النَّبيِّ ﷺ

في التَّعبيرِ عَنهُم باسْمِ المَفعولِ تَنزيلٌ لَهُم مَنزلَةَ مَن طُرِدوا مِن الرَّكْبِ لِعَدَمِ الرَّغبَةِ فيهِم. و﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هُم الَّذين خُلِّفوا عَنِ الجِهادِ في غَزْوةِ تَبوك، وكانَت في أَشَدِّ الحَرِّ، وفي وَقتِ جَنْيِ الثِّمارِ والمَيْلِ إلى الرّاحَةِ في ظِلالِ الأشْجارِ، وهُم تَخَلَّفوا مُختارينَ، ولَم يَتَخَلَّفوا مُجبَرينَ، ولَكنْ عبّرَ عَنهُم باسْمِ المَفعولِ لِلإشارَةِ إلى أَنّ اللّهَ تَعالى لَم يُرِدِ انْبِعاثَهُمْ كَما قالَ تَعالى: ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التّوبة: 46]؛ ولِذا قالَ تَعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، ولَم يَقُل سُبحانَهُ: (المتخلفون)[3]، فحُرِموا شَرَفَ الجِهادِ مع النَّبيِّ ﷺ، وظَنّوا بِتَخلُّفِهم هذا أنَّهم قَد مَكروا وخادَعوا، في حينِ أنّهم قد مُكرَ بِهم، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: 54].

دلالَةُ الجارِّ والمجْرورِ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

الـكَـشـفُ عـن قَـصدِ المُخالَفَةِ أَصالَةً والقُعودِ عَنِ الغزْوِ تَبعًا

قولُهُ تَعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾، أيْ: قُعودهمْ عَن غَزْوةِ تَبوك، ولَعلَّهُ عبَّر بِهذا المَصْدَرِ لصَلاحِيَتِه لِموضِعِ القُعودِ؛ لِيكونَ بِدلالَتِهِ عَلى الفَرَحِ أَعْظمَ دلالَةً على الفرَحِ بِالموضوعِ، وهو مَرْويٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما[4].

(1) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/366.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3392.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/561.

دلالَةُ المفْرَدِ في: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

دلالَةُ المقْعَدِ عَلى مَعنى القُعودِ أَوْ مَحلِّهِ تَجوّزًا

المَقْعدُ في قولِهِ تَعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ مَصْدرٌ ميميٌّ بِمَعْنى القُعودِ، وهو قُولُ الأكْثرينَ[1] أوْ هو اسْمُ مَكانٍ، والمرادُ بِهِ المَدينةُ[2]، والتَّعبيرُ بالمفْرَدِ لإرادَةِ المَصْدرِ، فَيَشْمل المُخلَّفينَ جَميعًا.

إعْرابُ ﴿خِلَٰفَ﴾ وأَثَرُهُ عَلى المَعنى:

الأَوْجُهُ الإعْرابيَّةُ المحتَمَلَةُ ودلالاتُها

قولُهُ تَعالى: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فيهِ ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ إعرابيّة:

أحدُها: أنّهُ مَنصوبٌ على المصْدَرِ بِفعلٍ مُقَدَّرٍ مَدلولٍ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ لِأنَّهُ في مَعنى: تَخَلَّفوا، أيْ: تَخَلَّفوا خِلافَ رَسولِ اللّهِ[3].

الثّاني: أنَّ ﴿خِلَٰفَ﴾ مَفعولٌ لِأجلِهِ، والعامِلُ فيهِ إمّا (فَرِحَ) وإمّا (مَقْعَد)، أيْ: فَرِحوا لِأجلِ مُخالَفَتِهم رَسولَ اللّهِ ﷺ، حيْثُ مَضى هو لِلجِهادِ وتَخَلَّفوا هُمْ عَنْه. أَوْ بِقعودِهِم لِمُخالَفَتِهم لَهُ، وإلَيهِ ذَهبَ الطَّبريُّ والزَّجّاج، ويُؤيِّدُ ذلكَ قِراءَةُ مَن قَرأَ: (خُلُفَ رَسولِ اللّهِ) بِضَمِّ الخاءِ واللّام[4].

الثّالِثُ: أنْ يَنْتصِبَ عَلى الظَّرفِ. أيْ: بَعدَ رَسولِ اللّهِ، يُقال: أقامَ زَيدٌ خِلافَ القَومِ، أيْ: تَخَلَّفَ بَعدَ ذهابِهم، و(خِلاف) يَكونُ ظَرفًا، وإلَيهِ ذَهبَ أبو عُبيدةَ وغيرُهُ، ويُؤيِّدُ هذا القِراءَةُ الشّاذَّةُ: (خَلْفَ رَسولِ اللّهِ) بِفتْحِ الخاءِ وسُكونِ اللّام[5].

فَوائدُ إيثارِ لَفظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ والعُدولِ عَن غَيرِهِ مِن مُرادِفاتِهِ:

استِنفارُ النَّاسِ بِمَا يَدُلُّ عَلى مُخالَفَةِ المُرادِ الشَّرْعيِّ

إنّ (خِلافَ) لُغَةٌ في (خَلْفَ). يُقالُ: أَقامَ خِلافَ الحَيِّ بِمَعْنَى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/339.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/466.
(3) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 6/91، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365، وهي قِراءَةُ ابنِ عبّاسٍ، وأبي حَيوَةَ، وعَمرِو بنِ مَيمون.

بَعْدَهُمْ، أَيْ ظَعَنوا وَلَمْ يَظْعَنْ، وَمِنْ نُكْتَةِ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿خِلَفَ﴾ دونَ (خَلْفَ) أَنَّهُ يُشيرُ إِلَى أَنَّ قُعودَهُمْ كانَ مُخالَفَةً لِإِرادَةِ رَسولِ اللّه حينَ اسْتَنْفَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ لِلْغَزْوِ[1].

الجِناسُ بَيْنَ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ و﴿خِلَٰفَ﴾:

تأنُّقُ الخِطَابِ القُرآنيِّ بما يحقِّقُ الإذْعَانَ

بَيْنَ قَولِهِ: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ و﴿خِلَٰفَ﴾ مُحسِّنٌ بَديعيٌّ هو جِناسُ الاشْتِقاقِ. وهو: سَوقُ المُتلاقيَينِ فيما يُشْبِه الاشتقاقَ مِن حيْثُ الجَمعُ بيْنَ لَفْظينِ وتَعليقُهما بمَصْدرٍ واحِدٍ، وهذا مِن مُلحقاتِ الجِناسِ.

سِرُّ إيثارِ لَفظِ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

التَّنبيهُ على مَقامِ الرِّسالَةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي أعرَضَ عَنها المنافِقون

أوثِرَ لَفظُ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ على غَيرِهِ للدَّلالَةِ عَلى لَطيفَةٍ تُحيلُ على مَقامِ الرِّسالةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي تَقتضي إذْعانًا لَها وتعلُّقًا، وفي إعْراضِ المنافقينَ عَن هذا المقامِ إعراضٌ عَنِ اللّهِ تَعالى.

المُقابَلَةُ المَعْنويَّةُ بيْنَ ﴿فَرِحَ﴾ و﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾:

عَدمُ ثَباتِ قلوبِ المُنافقينَ بالإيمانِ هو سَبَبُ فَرَحِهِمْ بالقُعودِ وكَراهِيَتِهِمُ الجِهادَ

في مُقابَلَةِ فَرَحِ المنافقينَ بقعودِهم وكَراهِيَتِهمُ الجهادَ إيضاحٌ لِسَببِ ذَينِكَ الأمرَين، وهو عَدمُ إيمانِهم باللّهِ تَعالى ورَسولِهِ ﷺ والدّارِ الآخرةِ؛ لِأَنَّ الفَرَحَ مِنْ ثَمَراتِ المَحَبَّةِ[2]. وفرحُهم بالإقامَةِ يَدلُّ عَلى كَراهِيَةِ الذّهابِ[3].

عَطفُ جُملةِ ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾ على ما قَبلَها:

سَوقُ العَطفِ لِقَصدِ تَعديدِ خِصالِ المنافِقينَ

ذلكَ أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ المُخَلَّفينَ قدْ جَمَعوا بَينَ الفَرَحِ بالتَّخلُّفِ وكَراهِيَةِ الجهادِ بأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللّه، فَكانتْ تلكَ الكراهِيَةُ خَصْلَةً أُخْرَى مُسْتقِلَّةً مِنْ خِصالِ النِّفاقِ؛ لِأَنَّ اللّه أَمَرَ بِذَلِكَ في آيَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ حيْثُ قالَ سبحانَهُ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 41]، وَلِكَوْنِها خَصْلَةً أُخْرَى جُعِلَتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281 - 280.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/159.

جُمْلَتُها مَعْطوفَةً، وَلَمْ تُجْعَلْ مُقْتَرِنَةً بِلامِ التَّعْليلِ مَعَ أَنَّ فَرَحَهُمْ بِالقُعودِ سَبَبُهُ هوَ الكَراهيَةُ لِلْجِهادِ[1].

سِرُّ العدولِ عَنِ المصْدَرِ الصَّريحِ إلى المصْدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾:

الدَّلالَةُ عَلى كَراهِيَةِ المُنافقينَ الجِهادَ الحَقيقيَّ المُسْتَمرَّ

التَّعبيرُ بالمصْدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ فيهِ تَصويرٌ لحالِ كَراهِيَتِهِمْ لِلمُشارَكَةِ في الجِهادِ والقِتالِ ومُعاناتِهِ مع المجاهِدينَ، وإنْ كانَتْ لَهم معَهُ مآربُ أُخرى مِنها: حِرصُهم عَلى وجودِ صورَتِهم مَع المجاهِدين؛ إذْ هُم حَريصونَ على الظُّهورِ؛ ليوهِموا المؤمِنين أنَّهم مَعهمْ، لِيَنالوا مِن غنائمِهم حينَ النَّصْر، كَما كَشَفَهم اللّهُ تَعالى بقولِه عَنهُم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: 141]، لكنَّهم في الواقعِ يَكْرهونَ أنْ يَكونوا مِنَ المجاهِدينَ حَقيقةً.

وكَذلك فَإنّ المصْدَرَ المؤَوَّلَ يَدفَع احْتمالَ الكَلامِ؛ فإذا قُلتَ: كَرِهوا مُجاهَدَتهم، احْتَمَلَ أنْ تَكونَ نَفْسُ المجاهَدَةِ هي المكْروهَةَ، أوْ أنْ يكونَ المكروهُ مُجاهَدَةً خاصَّةً ذاتَ هَيْئَةٍ مُحدَّدةٍ "ففيهِ تَحصينٌ لِلمَعنى مِنَ الإشْكالِ، وتَخليصٌ لَهُ مِن شَوائِبِ الاحْتِمالِ"[2] وكَأنَّ الاحْتِمالَ مَع المصْدَرِ الصَّريحِ يُمكِنُ أنْ يَكونَ قائِمًا، فَدَفَعهُ بِالمصْدَرِ المؤَوَّلِ.

دلالَةُ الجِهادِ وصيغَةِ (يُفاعِل):

التَّحريضُ عَلَى المشارَكَةِ لِتَحصيلِ الرَّغائِبِ

قولُهُ تَعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، إيذانٌ بِأنَّ الجهادَ في سَبيلِ اللّهِ مِن أَجَلّ الرّغائبِ وأَشْرفِ المطالبِ الَّتي يَجِبُ أنْ يَتنافَسَ فيها المُتنافِسون، ومَع ذلكَ هؤلاءِ قد كَرهوهُ، كَما فَرحوا بِأقْبحِ القَبائحِ الَّذي هو القُعودُ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/281.
(2) السّهيلي، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 97.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

نُكْتَةُ إيثارِ كَلِمةِ ﴿يُجَٰهِدُواْ﴾:

قد يكونُ سوءُ الاختيارِ مَعَ وضوحِ القَرارِ

أوثرَ ما في النَّظمِ الكريمِ، وهو التَّعبيرُ بالجهادِ ﴿يُجَٰهِدُواْ﴾ عَلى أنْ يُقال: و(كرِهوا أنْ يَخرجوا) مع رَسولِ اللّهِ ﷺ، إيذانًا بأنَّ الجهادَ في سبيلِ اللّهِ تَعالى مَع كَونهِ مِن أَجَلِّ الرَّغائبِ الَّتي يَنبَغي أنْ يَتَنافَسَ فيها المُتنافِسون، قد كَرِهوه، كَما فَرحوا بِأَقْبَحِ القَبائحِ، وهو القُعودِ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ[1].

سِرُّ تَقْديمِ الأَموالِ على الأَنْفُسِ:

تَقديمُ المُجاهَدَةِ بِالأَموالِ عَلى الأَنْفُسِ بِاعْتبارِ السَّبْقِ بِالسَّبَبيَّةِ

قدَّمَ الأَموالَ على الأَنْفُس، لِما أنَّ المجاهَدَةَ بِالأَموالِ أكثرُ وقوعًا وأتمُّ دفعًا لِلحاجَةِ حيْثُ لا يُتصَوَّر المجاهَدَةُ بِالنَّفْسِ بِلا مُجاهَدَةٍ بِالمالِ[2]، ووَجهُ التَّقديمِ أنَّ الجِهادَ يَستَدعي تَقْديمَ إنفاقِ الأموالِ أوَّلًا؛ فهو مِن بابِ السَّبْقِ بِالسَّببيَّةِ[3].

دلالَةُ الجَمْعِ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾:

بَذلُ المُنافِقِ الجهْدَ لِحفْظِ ما يَملِكُ إيماءً إلى بُخْلِهِ وجُبْنِهِ

في سَوقِ الجَمْعِ لِما يُبذَل في الجِهادِ مِن تَركِ الأموالِ والأَنْفُسِ جُمْلةً وتَفْصيلًا، وبَذلِها كُلِّها لِلجِهادِ في سَبيلِ اللّه، دلالَةٌ على بُخْلِهِم في كُلّ ما هو خَيْرٌ، وجُبْنِهم جَميعًا.

الفَرْقُ بَينَ الجَمْعِ بِـ(الأَنْفُس) وبِـ(النُّفُوس):

سَوقُ مَا يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ المُخَلَّفِينَ

الأَنْفُسُ جَمْعُ قِلَّةٍ (إلى عَشرة)، أمّا النّفوس فجمْعُ كَثْرةٍ؛ ولمّا كانَ أولئكَ عَددًا قَليلًا لا يُمَثِّلونَ ظاهِرَةً، إذا ما قيسوا بِجموعِ الصّحابةِ الَّذينَ كانوا يُقبِلون عَلى الجِهادِ مَع رَسولِ اللّهِ ﷺ غَيرَ هَيّابينَ المَوتَ ولا ضانّينَ بِالمالِ، اسْتخْدمَ (أَنْفُس) جَمْعَ القِلَّةِ.

سِرُّ تَقديمِ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا:

لّما كانَ هذا في سِياقِ الأَموالِ، تارَةً بِالرِّضا بِنَيْلِها والسَّخَطِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/339.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/256.

بِجِرْمانها، وتارَةً بِقَبضِ اليَدِ عَن بَذلِها، وتارَةً بِالاسْتِمْتاعِ بِالخلافِ الَّذي هو النَّصيبُ الأعمُّ مِن أنْ يَكونَ بِالمالِ أوِ النَّفسِ، وتارَةً بِعَيبِ الباذِلينَ، وغيرِ ذلكَ مِن شَأنِها، قدّمَ قَوْلَهُ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على قَولِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أيْ: طَريقِ المَلِكِ الَّذي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ؛ لِأنَّهُ لَيْسَ فيهِمْ باعِثُ الإيمانِ وداعي الإيقانِ الَّذي بَعَثَ المُؤْمِنينَ[1].

تَقديمُ الأَغْراضِ والحُظوظِ أوْ تَأْخيرُها بِحَسبِ مَوضِعِها مِن الاهْتمامِ

وقد جاء الحديث عن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس في آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ، وتارة يقدّم فيها ذكر الجهاد بالأموال والأنفس على متعلق الجهاد: (في سبيل الله)، وتارة يؤخّر، فمن ذلك قوله تعالى في سورَةِ التّوبة: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81].

وقالَ تعالى في سورَةِ الأنْفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72].

سورَة التّوبة قد تَقدَّم ذِكرُ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ مِن مثلِ قولِهِ تَعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقولِهِ: ﴿۞أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقدّمَ ذِكْر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأموالِ والأنْفُس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

وهو المناسِبُ هَهُنا لِلجِهادِ كما قدّمَ الأمْوال والأَنْفُس هُناك لِأنَّه المناسِبُ لِلأمْوالِ[1].

أمّا في سورَةِ الأنْفال فقد قدّمَ الأمْوال على ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّه تَقدّم ذكْرُ المالِ والفداءِ والغَنيمَةِ، في مِثل قولِه تَعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 67]، وهو المالُ الَّذي فَدى بِهِ الأسْرى أَنفُسَهم، وقولِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68]، أيْ: مِنَ الفداءِ، فقدّمَ المال هَهُنا؛ لِأنَّ المالَ كانَ مَطلوبًا لَهم، حتّى عاتَبَهُم اللّهُ في ذلكَ فطلبَ أنْ يَبْدَؤوا بِالتَّضحِيَةِ بِهِ[2].

وعلى هذا نَقولُ: إذا كانَ المقامُ في جَمعِ وحِفظِ الأموالِ يبدَأ بِالتَّضْحِيَةِ به بِها، وإذا كانَ السّياقُ في القِتالِ وليْس في الأموالِ يقدّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأمْوالِ[3].

فائدَةُ اسْتِعْمالِ المُفْرَدِ ﴿سَبِيلِ﴾:

إيثارُ المُفْرَدِ للدَّلالَةِ على الانْفرادِ في الكَمالِ

وحَّدَ الخِطابُ القُرآنيُّ سَبيلَهُ؛ لأنَّهُ في نَفسِهِ واحدٌ، لا تعدُّدَ فيه... كَما ثَبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَّ خطًّا، ثُمّ قالَ: «هذا سَبيلُ اللّهِ»، ثُم خَطَّ خطوطًا عن يمينِهِ وعَن يَسارِهِ، ثُمّ قال: «هذهِ سُبُلٌ، عَلى كُلّ سَبيلٍ منها شَيطانٌ يَدْعو إلَيهِ»، ثُمّ قَرأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153][4]، فسيقَ المُفْرَدُ للدّلالَةِ على طَريقِ المَلِكِ الَّذي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ[5].

دلالَةُ التّعريضِ بِجَميلِ صَنيعِ المؤمِنينَ في الآيَةِ:

التَّعريضُ بِشَرَفِ المؤمِنينَ مِن حيثُ إيثارُهُمُ النَّعيمَ الأبْقى والمقامَ الأنْقى

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تَعريضٌ

(1) السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 48.
(2) السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 48.
(3) السّامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 729.
(4) ابن القيّم، طريق الهجرتين، ص: 177، والحديث صحيح الإسناد، رواه أحمد في المسند رقم: (4142، 4437).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

بالمؤمنينَ وبتحمُّلِهمُ المَشاقَّ العَظيمَةَ، أَيْ: كالمُؤْمِنينَ الَّذينَ بَذَلوا أَمْوالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ في الجِهادِ في سَبيلِ اللّه، وَآثَروا ذَلِكَ عَلَى الدَّعَةِ والخَفْضِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ المُنافِقونَ، وَكَيْفَ لا يَكْرَهونَهُ وليس فيهم فيهِمْ ما في المُؤْمِنينَ مِنْ باعِثِ الإيمانِ[1].

وَجْهُ العَطفِ في: ﴿وَقَالُواْ﴾:

ورَدَ عَطفُ قولِهِ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، أي: قالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ؛ وكانوا أَرْبَعَةً وثَمانينَ رَجُلًا. وقيلَ: قالوا لِلْمُؤْمِنينَ، فلَمْ يَكْفِهِمْ ما هم عَلَيْهِ مِنَ النِّفاقِ والكَسَلِ حَتّى أرادوا أَنْ يكْسِبوا غَيْرَهم ويُنَبِّهوهم عَلى العِلَّةِ الموجِبَةِ لِتَرْكِ النَّفْرِ. قالَ ابْنُ عَبّاسٍ، وأبو رَزينٍ والرَّبيعُ: قالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللّه، الحَرُّ شَديدٌ، فَلا تَنْفِر في الحَرِّ. وقالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هو رَجُلٌ مِن بَني سَلَمَةَ. انْتَهى. أَيْ: قالَ ذَلِكَ عَنْ لِسانِهِمْ، فَلِذَلِكَ جاءَ ﴿وَقَالُواْ﴾ بِلَفْظِ الجَمْعِ[2].

سَوقُ ما يَدُلُّ عَلى إخْمالِ المُخَلَّفينَ على عَدَمِ الخروجِ لِأَجْلِ (الحَرّ)

دلالَةُ الجَمعِ بيْنَ الأفْعالِ الثَّلاثَةِ في حَقِّ المنافقينَ: ﴿فَرِحَ﴾، ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾، ﴿وَقَالُواْ﴾:

جمعَ النَّظمُ في الآيةِ الكريمةِ بينَ الأفعالِ الثَّلاثَةِ المذكورةِ؛ للدَّلالَةِ على الخصالِ الثَّلاثِ الَّتي اتَّصفَ بها المنافقونَ مِن خِصالِ الكُفرِ والضَّلالِ، وهي الفرحُ بالقعودِ، وكَراهِيَةُ الجهادِ، ونَهْيُ الغَيْرِ عَن ذلكَ[3].

ذِكْرُ الخِصالِ الَّتي اتَّصفَ بِها المنافقونَ يَنضَحُ بِقُبْحِ سَرائِرِهِمْ

فهَؤُلاءِ ضَمّوا إلى سُرورِهِمْ بها كَراهيَةَ الطّاعَةِ، وقَدْ يَكْرَهُ ولا يَنْهى غَيْرَهُ، ولكن هَؤُلاءِ جَمَعوا إلى ذَلِكَ كُلِّهِ نَهْيَ غَيْرِهِمْ[4].

دلالَةُ حَذفِ المخاطَبِ في قولِ المنافقين: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾:

قالَ المنافقونُ ما قالوهُ لِإخْوانِهِمْ تَثْبيتًا لَهُم عَلى التَّخَلُّفِ والقُعودِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

وتَواصيًا فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ والفَسادِ، أوْ لِلْمُؤْمِنينَ تَثْبيطًا لَهم عَنِ الجِهادِ، ونَهْيًا عَنِ المَعْروفِ، وإظْهارًا لِبَعْضِ العِلَلِ الدّاعيَةِ لَهم إلى ما فَرِحوا بِهِ مِنَ القُعودِ، فَقَدْ جَمَعوا ثَلاثَ خِلالٍ مِن خِصالِ الكُفْرِ والضَّلالِ وهي: الفَرَحُ بِالقُعودِ، وكَراهيَةُ الجِهادِ، ونَهْيُ الغَيرِ عَنْ ذَلِكَ[1].

حذفُ المخاطَب لِيستغرقَ تَثبيتَ المنافقينَ لإخوانِهم وتَثْبيطَهُمُ المؤمنينَ

دلالَةُ تَكرارِ لَفظِ (النَّفْر):

سورَةُ التّوبة هي أَكثرُ سورَةٍ ذُكرَتْ فيها لفظَةُ (النَّفْر)، مِن ذلكَ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ [التوبة: 38]، ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ [التوبة: 39]، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا﴾ [التوبة: 41]، ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]، ﴿لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، وفي تَكرارِ الفِعلِ (نَفَرَ) الَّذي يَدلُّ عَلى الخُروجِ السَّريعِ مِن مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ، وأَكْثَرُ ما يُطْلَقُ عَلى الخُروجِ إلى الحَرْبِ، تَحريضٌ على الجِهادِ وتَنْديدٌ عَلى المقَصِّرينَ في شَأْنِه.

إثارَةُ هِمَمِ المخاطَبينَ نَحْوَ النَّفيرِ في سَبيلِ اللهِ بِتَكرارِ ذِكرِهِ

دلالَةُ النَّهْي: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾:

ورَدَتْ صيغَةُ النّهْي ومعها عِلَّتها، للدَّلالَةِ عَلى الاسْتِعْذارِ بِشِدَّةِ الحَرِّ وسَبَبِ تَرْكِ النَّفْرِ، حيْثُ قَصدوا إلى أنْ يَكْسِبوا غَيْرَهم، ويُنَبِّهوهُم عَلى العِلَّةِ الموجِبَةِ لِتَرْكِ النَّفْرِ[2].

تَلقينُ الآخَرينَ عِلَّةَ النَّهْي لإمدادِهِمْ بِعُذْرِ التَّخَلُّفِ

نوع (ال) في ﴿ٱلْحَرِّ﴾، ودلالَتُها:

تَعْريفُ (الحرّ) للدّلالة على مَعهودٍ؛ لِأَنَّ غَزْوَةَ تَبوكَ كانَتْ في وقْتِ شِدَّةِ الحَرِّ وطيبِ الثِّمارِ والظِّلالِ[3].

الإحالةُ على المَعهودِ لقصدِ البَيانِ المُعْجِز

وَجْهُ الرَّدِّ عَليهِمْ:

قولُهُ تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ جُملَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ ابْتِدائيَّةٌ، خِطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمَقْصودُ قَرْعُ أَسْماعِهِمْ بِهَذا الكَلامِ[4] وفي هذهِ

مَنْ تَصَوَّنَ مَشَقَّةَ ساعَةٍ تَأَبَّدَتْ مَشَقَّتُهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.

العبارَةِ اسْتجهالٌ لِلمنافقينَ؛ لِأنَّ مَن تَصوَّنَ مِن مشَقَّة ساعَةٍ، فَوقَعَ بِسببَ ذلكَ التَّصوّنِ في مشَقَّةِ الأَبَدِ، كانَ أَجهَلَ مِن كُلِّ جاهِلٍ[1].

الكِنايَةُ في: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾:

قولُهُ تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾: تَذْكيرٌ بِطَريقِ الكِنايَةِ عَنْ كَوْنِهِمْ واقِعينَ في نارِ جَهَنَّمَ، لِأَجْلِ قُعودِهِمْ عَنِ الغَزْوِ في الحَرِّ، وهي كِنايَةٌ عُرْضيَّةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ صائِرينَ إِلَى نارِ جَهَنَّمَ[2].

التّذكيرُ بِمَصيرِ المُنافِقينَ الحَتْميِّ بِدلالَةِ الكِنايَةِ العُرْضيَّةِ

سِرّ اسْتِخدامِ اسْمِ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

قيلَ: إنَّ اسْمَ جَهَنَّمَ مُعَرَّبٌ وأَصْلُهُ فارِسيٌّ[3] وعلى القَولِ بِأَنَّهُ عَربِيٌّ، فَهو مُشتَقٌّ مِنَ الجَهْم أَوِ الجُهومَة، وهو الشَّيْءُ المخوفُ العابِسُ الكَريهُ[4] وعِندئذٍ يَكونُ ما يَحمِلُهُ لَفظُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ من معنى الكَراهِيَةِ والبُغْضِ والخَوْفِ هو مُسَوِّغُ اخْتيارِهِ هُنا؛ فَلِكَونِهم كَرِهوا الاسْتِجابَةَ لِرَبِّهم، والجِهادَ في سَبيلِهِ مُتَذَرِّعينَ بِحَرِّ الدُّنيا عوقبوا بـ ﴿جَهَنَّمَ﴾، فَلْيَتحَمَّلوا حرَّ نارِ جَهَنَّمَ الَّتي يَحْمِلُ اسْمُها صِفَةَ التَّجَهُّمِ والعُبوسِ جَزاءً وفاقًا.

تَوعُّدُ المُنافِقينَ بِالتَّجَهُّمِ فَوقَ العَذابِ بالألَمِ

سِرُّ مَجيءِ فِعلِ الأَمْرِ ﴿قُلْ﴾ في صَدْرِ الرَّدِّ علَيهِم، ودلالَتُهُ:

الخطابُ بِفِعلِ الأَمْرِ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تَفْنيدًا لِقَولِ المنافقينَ وتَسْفيهًا لِحُلومِهم[5].

تَصديرُ الأَمرِ لِلإحالَةِ عَلى الرُّدودِ القَطْعيَّةِ إِفْحامًا لِلمنافِقينَ وتَسْفيهًا لِأَحْلامِهِمْ

فائدَةُ إِضافَةِ ﴿نَارُ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

وَجْهُ إضافَةِ ﴿نَارُ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ من بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه؛ ولِهذا لا يُقال: جَهَنَّمُ نارٍ، ولَكِنْ يُقالُ: نارُ جَهَنَّمَ؛ فجَهَنَّمُ عَلَمٌ مِن بابِ اللَّقَبِ، ومَعْلومٌ أنَّ العَلَمَ اسْمٌ وكُنْيَةٌ ولَقَبٌ، فجَهَنَّمُ اسْمٌ عَلَمٌ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(3) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (جهنم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4138.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/491.

تَعليقُ المَوْصوفِ بِصِفَتِهِ لِلدَّلالَةِ عَـلى ما يُحقِّقُ الوَعيدَ المُرادَ

لَكِنَّه من بابِ اللَّقَبِ، والعَلَمُ اللَّقَبُ بِمَنْزِلَةِ الصِّفَةِ؛ يعني: بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ؛ لأنَّ اللَّقَبَ ما أَشْعَرَ بِمَدْحٍ أو ذَمٍّ، وبناءً على ذلك يَتَبَيَّنُ أنَّ مِثلَ هذا التَّركيبِ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ من بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه[1].

وإضافَةُ النّارِ إلى جَهنَّم فيهِ زيادَةُ تَرْهيبٍ وشِدّةُ تَخويفٍ؛ لِاكْتِسابِ المُضافِ مَعنى المضافِ إلَيهِ، وجَهنَّمُ - والعياذُ بِاللّه - تَدلُّ عَلى شِدَّةِ بُعدِ قَعْرِها، وقد تَكَرَّر في الأَحاديثِ وصْفُها بِالعُمقِ السَّحيقِ، مِثْل قولِه ﷺ: «يَهوي بِها سَبعينَ خَريفًا»[2]، وقَد سمّاها اللّهُ ﷻ: هاويَة، فقالَ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 9]، "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[3].

وفي إضافَةِ النّارِ إلى جَهنَّمَ إشارةٌ إلى تَهديدِهِم بِالعذابِ المجانِسِ لِأعْمالِهم، كَما ذَكَرَهُ اللّهُ تَعالى في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

دلالَةُ لَفظِ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾:

مُقابَلَةُ الحُجَّةِ بِالحُجَّةِ ذاتِها عَلى وَجْهٍ يُدِينُ المُنافِقينَ مِنْ أَفْواهِهِمْ

في قولِهِ ﷻ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ردٌّ على أقْوالِ المنافقينَ القَبيحَةِ، وأفْعالِهِمُ الخَبيثَةِ، وقولٌ على سَبيلِ التَّهكُّمِ بِهم والتَّحقيرِ مِن شَأنِهم، أيْ: أنَّ نارَ جَهنَّم أَشَدُّ حَرًّا مِن هذا الحرِّ الَّذي تَخشَونَهُ وتَرونَهُ مانِعًا مِنَ النَّفيرِ، بلْ هي أشدُّ حرًّا مِن نارِ الدُّنيا[4].

وكذلكَ في قولِهِ تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ اسْتِجهالٌ لَهُمْ، لِأنّ مَنْ تَصَوّنَ مِن مَشقَّةِ ساعَةٍ فوقَعَ بِسببِ ذلكَ التَّصَوّنِ في مَشقَّةِ الأَبَدِ، كانَ أجْهلَ مِن كُلّ جاهِلٍ[5].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 256.
(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي، السّنن، برقم: (2314)، وأحمد، المسند، برقم: (7215).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هوي).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/366.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/296.

فائدةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿أَشَدُّ﴾:

إنّ نارَ جهنَّمَ أَشدُّ حرًّا ممّا يَحذَرُ المنافقونَ مِنَ الحرِّ المعْهودِ ويُحذّرونَ النّاسَ مِنهُ[1] وَكَوْنُها أَشَدَّ حَرًّا مِنْ حَرِّ القَيْظِ أَمْرٌ مَعْلومٌ لا يَتَعَلَّقُ الغَرَضُ بِالإِخْبارِ عَنْهُ[2].

وحذْفُ مُتَعلّقِ ﴿أَشَدُّ﴾ زيادَةٌ في التَّهويلِ؛ لِيشْمَلَ النَّفْرَ في الحرِّ، وهو المذْكورُ في قولِهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۚ﴾، ويَشْمَلَ غيْرَ ذلكَ ممّا يُتَصَوَّر مِن حرٍّ في الدُّنْيا.

حَـذْفُ مُتعلّقِ (أَشَـدُّ) زيـادَة في الـتَّـهـويـلِ؛ لِيَشْملَ النَّفْرَ في الحرِّ وغيرِهِ

فائدةُ ﴿لَّوْ﴾:

أَورَدَ الخطابُ حَرفَ ﴿لَّوْ﴾ لِمُجرَّدِ التّمَنّي المنبئِ عَنِ امْتناعِ تَحقُّقِ مَدْخولِها[3].

سَوقُ ما يَدلُّ في عِـلـمِ الـلـهِ عَـلى امْـتِـنـاعِ تَـحَـقُّـقِ فِقْهِ المنافقين

فائدةُ قولِهِ تَعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾، وبَلاغَتُهُ:

قولُهُ سبحانه: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ تَتْميمٌ، لِلتَّجْهيلِ والتَّذْكيرِ، أَيْ: يُقالُ لَهُمْ ذَلِكَ لَوْ كانوا يَفْقَهونَ الذِّكْرَى، وَلَكِنَّهُمْ لا يَفْقَهونَ، فَلا تُجْدي فيهِمُ الذّكْرى والمَوْعِظَةُ؛ إذ لَيْسَ المُرادُ: لَوْ كانوا يَفْقَهونَ أَنَّ نارَ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا؛ لِأَنَّهُ لا يَخْفَى عَلَيْهِمْ؛ وَلَوْ كانوا يَفْقَهونَ أَنَّهُمْ صائِرونَ إِلَى النَّارِ وَلَكِنَّهُمْ لا يفقهونَ ذَلِك[4].

بَـلاغَـةُ الإخـبـارِ بِالمعْلومِ بَداهَةً

بَلاغَةُ الاعْتِراضِ التَّذْييليّ في الآيَةِ:

قولُهُ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ مِن جِهتِهِ ﷻ، غيرُ داخلٍ تَحتَ القولِ المأمورِ بِهِ، مؤكّدٌ لِمَضْمونِهِ[5].

دلالَـةُ التّأكيدِ بِـالاعـتِراضِ الـتَّـذيـيـلِيِّ على صَنيعِ المُنافِقين

دلالَةُ حَذفِ جوابِ الشَّرطِ لِفعْلِ الشَّرطِ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾:

حُذِفَ جَوابُ (لَو) لِلإشارَةِ إلى أنَّ المنافقينَ سَيسْتقبِلونَ هَولًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

عظيمًا يَنتَظرُهم. والتّقديرُ: لَو كانوا يَفقَهونَ الأمورَ، لَوازَنوا بيْنَ ما يَستقبِلهم في تَخَلُّفِهم، واتِّقاءِ حَرِّ الدُّنيا، وبيْنَ ما يَلقَونَهُ بَعدَ البَعثِ مِن عذابِ جَهَنَّمَ الشَّديدِ حَرُّها، وإنَّهُ لآتٍ لا رَيْبَ فيهِ[1].

الدّلالَةُ على عِظَمِ الهَوْلِ الَّذي يَجْهَلُه المُخَلَّفون

دلالَةُ حَذفِ مَفعولِ: ﴿يَفْقَهُونَ﴾:

حُذِفَ مَفْعولُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لِصلاحِيَةِ تَقديرِ لَوازِمِ جَهلِهم بِما يَفْقَهُهُ العُقلاءُ، أوْ تَنزيلًا لِلفِعْلِ المُتَعَدّي مَنزِلَةَ اللّازِمِ؛ فَلا جَوابَ ولا مَفْعولَ؛ ويَؤُولُ المَعْنى إلى أنَّهمْ ما كانوا مِن أهْلِ الفَطانَةِ والفِقْهِ، ويَكونُ الكَلامُ نَظيرَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وهو خِلافُ الظّاهِرِ أيْضًا[2].

تَنزيلُ الفِعلِ المُتعدّي مَنزِلَةَ اللّازِمِ لِتَقريرِ نَفْيِ صِفَةِ الفَهْمِ عَنِ المنافقينَ

إيثارُ لَفظِ الفِقْهِ دونَ غَيْرِهِ مِن مُرادِفاتِهِ:

فُسِّرَ الفِقهُ بالعِلْمِ بالشَّيْءِ والفَهْمِ لَهُ، وَكَذا بالفِطْنَةِ، ويُراد بِهِ نَوْعٌ خاصٌّ مِنْ دِقَّةِ الفَهْمِ والتَّعَمُّقِ في العِلْمِ الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الانْتِفاعُ بِهِ، وأُوثِرَ بالذِّكرِ دونَ غَيرِهِ في هذا الموضِعِ؛ لِلدَّلالَةِ على أنَّ المنافقينَ لَمْ يُدْرِكوا كُنْهَ المُرادِ مِمَّا نُفِيَ فِقْهُهُ عَنْهُمْ، فَفاتَتْهُمُ المَنْفَعَةُ مِنَ الفَهْمِ الدَّقيقِ، والعِلْمِ المُتَمَكِّنِ مِنَ النَّفْسِ[3].

سَلْبُ ثَمَرَاتِ الفَهمِ النّافذِ إلى اللُّبابِ بِإيثارِ لَفظَةِ الفِقْهِ

دلالَةُ صيغَةِ المُضارِعِ:

أوثِرَ الفِعلُ المضارِعُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لِلدَّلالَةِ عَلى أنَّ عَدَمَ فِقهِهِمْ مُتَجَدِّدٌ ومُسْتمرٌّ.

سوقُ ما يَدلُّ عَلَى تجدُّدِ الذّمِّ واستمرارِ عدَمِ الفَهْمِ

سِرُّ العُدولِ عَن (لَوْ كُنتُمْ تَفْقهونَ) إلى ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾:

﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتقِلَّةٌ، وتَعقيبٌ عَلى ما قالَ المُخلَّفونَ، وعَلى ما أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بِأنْ يَقولَهُ لَهُم، والظّاهِرُ: أنَّهُ تَحويلٌ لِلكلامِ مِنَ المخاطَبِ إلى الغائِبِ، تَجاهُلًا لِوجودِهِمْ،

تَحويلُ الخطابِ إلى الغَيبَةِ تَجاهُلًا لِوجودِ المُخلَّفينَ لِعدَمِ أهليَّتِهِمْ لِلخطابِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3393.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/352.

بِتَنزيلِهم مَنْزِلَةَ غَيرِ الموجودِ أصْلًا، لِكونِهم لَيسوا أَهلًا لِأنْ يَتشرَّفوا بِالخطابِ الشَّريفِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَحُ والضَّحكُ والسُّرورُ:

الفَرَح أَعَمُّ مِنَ السُّرور، والضَّحِك ظُهورُ الثَّنايا مِنَ الفَرَحِ

لا شَكَّ أنَّ بيْنَ الفَرَح والسُّرور مُشْتَرَكًا وتَقارُبًا دلاليًّا، ولَكِن مِن دَقيقِ الفُروقِ بَيْنَهُما:

أنَّ السُّرورَ لا يَكون إلَّا بِما هوَ نَفْعٌ أَو لَذَّةٌ على الحَقيقَة، وَقد يَكونُ الفَرَح بِما لَيْسَ بِنَفْع وَلا لَذَّة، كَفَرحِ الصَّبيِّ بالرَّقْصِ والعَدْوِ والسِّباحَةِ وَغيرِ ذَلِك، مِمَّا يُتْعِبُه ويُؤذيه، وَلا يُسمَّى ذَلِك سُرورًا، ونَقيضُ السُّرور الحُزنُ، وَمَعْلوم أَنَّ الحُزْن يكونُ بالمَرازِئِ، فَيَنْبَغي أَنْ يكونَ السُّرورُ بالفوائِدِ، وَما يجْري مَجْراها مِنَ الملاذِّ، ونَقيضُ الفَرحِ الغَمُّ، وَقد يَغتمُّ الإنْسانُ بِضَرَرٍ يَتوهَّمهُ مِن غَيرِ أَنْ يكونَ لَهُ حَقيقَة، وَكَذَلِكَ يَفرَحُ بِما لا حَقيقَةَ لَهُ[1].

في حينِ أنّ الضّحكَ: ظُهورُ الثَّنايا مِنَ الفَرَح[2]، وهو رَدُّ فِعلٍ خارِجيٌّ على مَوقِفٍ مُحدَّدٍ أوْ شَيءٍ آخَر، ومِن ثَمّ فهناك فَرَح أوْ سُرورٌ مِن دونِ ضَحِك، وضَحِكٌ مِن دونِ فَرَحٍ أوْ سُرورٍ.

(الخالفونَ) و(القاعِدونَ):

القُعودُ لُصوقٌ بِالأَرضِ، ومِن لَوَازِمِهِ التَّثاقُلُ عَنِ القِتالِ والتَّخلُّفُ عَنْهُ

يُمكِنُ أنْ نُلَخِّصَ الفَرقَ بَينَ اللّفظَتَينِ في أنَّ (القاعدينَ) جاءَتْ مَع ذِكرِ كَسَلِ المنافِقينَ وإيثارِهمُ القعودَ رَغْبَةً مِنْهُمْ، وهوَ ما يُعَبَّرُ عَنهُ في اللّغَةِ بِالقعودِ، فَوافَقَ بِهذا الاستِعمالَ اللُّغويَّ، ولَفظُ (الخالفين) جاءَ في سِياقِ بَيانِ عُقوبَةِ اللّهِ تَعالى لِلمنافِقينَ بِإلْزامِهمُ البَقاءَ مَع أَهلِ الأَعذارِ مَع رَغْبَتِهِمْ في الخروجِ؛ فَلمّا لَم توجَدْ بَواعِثُ الكَسَلِ عُبّرَ بِـ(الخالِفينَ).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 265.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضحك).

فالقُعودُ الرُّسوخُ واللُّصوقُ بالأرْضِ، فَلفظُ القعودِ يَدلُّ عَلى التَّثاقُلِ عَنِ القِتالِ والتَّخَلُّفِ عَنْهُ، والخالِفونَ الَّذينَ يَبْقَوْنَ بَعدَ الذّاهِبينَ إلى الغَزْوِ[1].

(خِلافَ) و(دونَ):

(دون) أَعـمُّ مِن (خِلاف)

تَتَّسِع دلالاتُ لَفْظَةِ (دون) حتَّى تَصِلَ إلى مَعانٍ كَثيرَةٍ، يُحدِّدُها السّياقُ[2]، تَنسَجِمُ في بَعضِها معَ مَعنى (خِلاف)، ممّا يُحيلُ عَلى نِسْبةِ العُمومِ والخُصوصِ المُطْلَقِ.

(بِمَقْعَدِهم) و(بِمَكانهم):

المـكـانُ أَوسَـعُ مَعنًى، والمَقْعَدُ هـو الـقُـعـودُ أوْ مَوضِعُهُ

يَدلُّ المَقعدُ في القُرآنِ عَلى الثّبوتِ واللّبْثِ والاسْتِقرارِ، في حينِ أنَّ المكانَ مَفْعَلٌ مِنَ الكَونِ، ويَكونُ المقعدُ مَصْدرًا أوْ مَوضِعًا؛ وعَلَيهِ فإنّ الأَلْيَقَ بالمَعنى القُرآنيِّ المَقْصودِ إيرادُ (مَقْعَد) لِتشوّف المنافِقينَ إلى اسْتِقرارِهم وثُبوتِهمْ مَع الخَوالِفِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلف) و(قعد).

(2) فَتأتي: (دون) اسْم فِعلٍ بمعنى: الوعيد، كَقولِ السَّيِّد لخادِمِه: دونَكَ عِصْياني، واسْم فِعلٍ بمَعنى: خُذْ، وتوصَل بِكافِ الخطابِ، فيُقال: دونَكَ الدِّرْهم، وظَرْف مكانٍ منصوبًا، وهو بِحسبِ ما يُضاف إليه، فيَكون بمَعنى: فوق. نحو: السَّماءُ دونَك، وبمعنى: قَبل. نَحو: دونَ قَتْل الأَسَد أَهوالٌ، وبمعنى: تَحت، وأسْفل. كقولِك: دونَ قَدمِكَ بِساطٌ، وبمعنى: خَلْف. نَحو: جَلَسَ الوزيْر دونَ الأَميرِ، وبمَعنى: أَمام. نَحو: سارَ الرّائدُ دونَ الجَماعَة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»